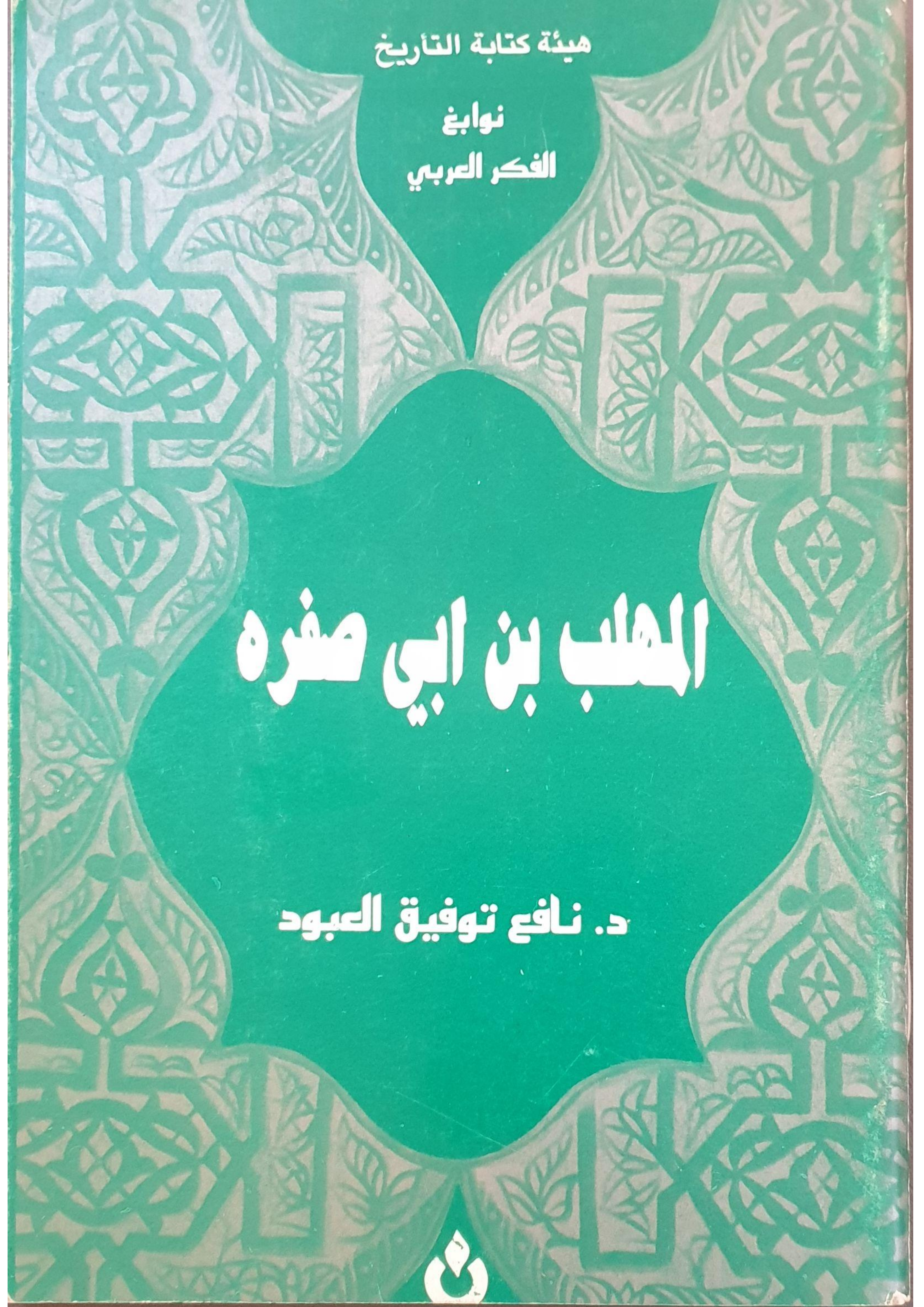

هيئة كتابة التأريخ
نوابغ
الفكر العربي
المهلب بن ابي صفره
د. نافع توفيق العبود



بغداد ١٩٨٨



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

هيئة كتابة التاريخ

سلسلة نوابغ الفكر العربي

المهلب بن ابي صفرة

د . نافع توفيق العبود

الطبعة الاولى - لسنة ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

زخر تاريخنا العربي العتيد بأمجاد عظام وقادة كبار ، وهذه الصفحات تهدف الى ان تضع أحد اولئك القـادة المشهورين ، هو المهلب بن أبي صفرة في مكانه الصحيح بينهم ، كما انها تهدف الى دراسته في اطار عصره الذي عاش فيه ، واسهم في نسج بعض احداثه المهمة ووقائعه الخطيرة ..

فهذه الصفحات ليست مجرد سيرة حياة المهلب فحسب ، وانما هي أيضا محاولة دراسة بعض جوانب احداث عصره المهمة وتأطيرها باطار واضح . ومن هنا جاء منهج هذه الدراسة ، قائما على ابراز التفاعل المتبادل بين القائـد والحدث ، على أساس ان الظروف تخلق القادة ، وان القادة يلعبون دورهم في استثمار هذه الظروف وتغييرها . ومن هذا المنطلق حاولنا جهدنا ابراز الصورة الشاملة المتكاملة لحياة المهلب ووضعه الموضع الصحيح في مسيرة التاريخ الحافلة ، دون زيادة او نقصان ، وحرصنا في احكامنا —

قدر الامكان ـ اجتناب الحماسة العاطفية التي يقود اليها اعجاب الباحثين بالشخصيات التاريخية التي يتصدون لدراستها ، فيبتعد بعضهم عن الموضوعية ويجردون الحقيقة التاريخية من جوهرها العلمي الصحيح ·

وجاء بحثنا هذا في اربعة فصول :

تناول الفصل الاول ، نسب المهلب ، وحياته ، وشخصيته وصفاته وكفاءته الحربية ، وتمسكه بقبيلته وخطبه ود الناس ، كذلك لم يغفل هذا الفصل ما جاء في ثلب المهلب ·

اما الفصل الثاني ، فقد انصب على ايضاح دور المهلب في حروب التحرير العربية والفتوحات الاسلامية ·

وتناول الفصل الثالث ، ابراز دور المهلب الخطير في محاربة الازارقة الخوارج ، لحساب الزبيريين اولا ، ولحساب الامويين ثانياً ·

اما الفصل الرابع ، فتناول ولاية المهلب على خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي ، ونجاحه في تحقيق ما امله الحجاج فيه من حفظ للتوازن القبلي هناك ، واشغال القبائل العربية في الفتح ، وبخاصة في بلاد ما وراء نهر جيحون ·

ان المصادر والمراجع المستخدمة في هذا البحث ، عديدة ومتنوعة ، بينها كتب تاريخية عامة ، وكتب طبقات وسير ومدن ، وكتب ادبية ٠ كما يتجلى ذلك ـ للقارىء الكريم ـ في الهوامش وقائمة المصادر والمراجع المثبتة في آخر البحث ٠

ومن الله العون والتوفيق ٠

الدكتور نافع توفيق العبود

الفصل الأول

المهلب بن ابي صفرة

نسبه وحياته

نسبه :

قبل ان نتحدث في حياة هذا القائد العربي الشهير . نرى من المناسب ان نتحدث في أمر نسبه الذي حاولت الشعوبية المضللة والنزعات القبلية الضيقة القدح في نسبه العربي الصميمي .

فالرجل هو المهلب بن ابي صفرة ، ووالده هو ظالم ابن سراق بن صبح بن عمرو بن عدي بن وائل بن الحارث ابن العتيك بن الأزد بن عمران . واصله من ازد العتيك (ازد دبا) اليمانية التي هاجرت من موطنها الاصلي في اليمن واستقرت فيما بين عمان والبحرين[1] .

ونود ان نعرض هنا الى بعض الروايات المزعومة التي حاولت القدح في نسبه العربي وان نفندها اظهاراً للحقيقة التاريخية . وفحوى مازعمته تلك الروايات : ان اصل

والد المهلب من عجم عُمان ، وانه كان نساجا فارسيا هاجر من جزيرة خارك في الخليج العربي الى عمان ، وهناك ادعى النسب الى الازد ، ثم تحول من المجوسية الى الاسلام (٢) .

ولعل اول من حاول الطعن في نسبة والد المهلب الى العرب ، هو زياد الأعجم ، فتلقف الفرزدق ذلك وانكر نسبة آل المهلب الى العرب في هجائه لهم في شعره (٣) .

ونلاحظ ايضا ان ابا عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ) قد اكّد النسبة المزعومة ، وكان هذا ـ كما هو معلوم ـ يتتبع بحماس جمع كل المثالب عن العرب ، فاشاع روايته عن نسب المهلب الى العجم ، حتى اننا لنجد ابن رسته (ت بين ٢٩٠ ـ ٣٠٠هـ) قد أخذ بها (٤) .

ان دراستنا وتحليلنا لهذه الروايات ، ادت بنا الى تفنيدها ورفضها ، اذ لايمكن تصديق رواية زياد الأعجم الذي ألّف في مثالب العرب ، فاراد ان يعرّ البيوتات العربية تشفيا منهم .(٥)

كذلك لا يمكننا قبول رواية ابي عبيدة ، لما عرف عنه من شعوبيته وميله الى رأي الخوارج الذين استأصل المهلب شأفتهم بعد حروب طويلة ، فضلا عن ان أحداً من الحكام لم يقبل شهادته ، كما ذكر ذلك المؤرخ النزيه ابن خلكان (٦) .

اما ابن رسته ـ وهو بلداني كبير ـ فلم يعرف عنه انه من العارفين المشاهير بالأنساب ، وان اعتماده على رواية ابي عبيدة لا تقوم دليلاً على صحة ما اورده عن نسب المهالبة .

وفي هذا الصدد أيضا ، نرى (يوهان فك) يقع في خطأ كبير باعتماده على ما ذكره ابن رسته وجعله دليلا ثابتا على ان اصل المهالبة من العجم(٧)!!

ومما يفند تلك الرواية المزعومة ايضا ، هو ان الامويين اتبعوا سياسة تعتمد على العرب فلم يبرزوا غيرهم في دولتهم ، فلا يعقل ان يقدموا المهلب ويقربونه اليهم لو كان من اصل فارسي ، وبخاصة في عهد الخليفة عبدالملك ابن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) الذي اشتهر بسياسة التعريب .

وفضلا عن هذا ، فان المتتبع لسيرة المهلب وابنائه واحفاده، يجد أنهم كانوا يمثلون الخصال العربية الحميدة خير تمثيل في حياتهم العامة والخاصة ، فكانوا امراء حرب وكرم وايثار .

ونستطيع ان نضيف دليلا آخر يفند زعم نسبة المهالبة الى العجم ، هو انهم حين تولوا المشرق ، لم يتوانوا عن بذل قصارى جهدهم في توسيع رقعة الدولة العربية الاسلامية واعلاء شانها ، والقضاء على الحركات المناوئة للخلافة وللسلطان العربي هناك .

الى جانب هذا كله فان كتب النسب الموثوقة تجمع على ايضاح نسب المهلب الى العرب ، بما لا يقبل الشك .

حياته :

ولد المهلب في سنة ٨هـ[٨] في اسرة كان عميدها من وجهاء الازد ، وادرك والده الاسلام فأسلم ، وقيل انه ارتد ثم رجع الى الاسلام .

وهاجرت اسرة المهلب الى البصرة ، ضمن قبيلته الازدية ، بعد تمصيرها ، وصار والده من المقربين الى أميرها عثمان بن ابي العاص ، حتى اوفده هذا على رأس جماعة من الازد الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض)[٩] مما يدل على علو منزلته بين قومه . وبعد لقائه بالخليفة عمر طلب اليه ان يوليه بعض الاعمال في الدولة الاسلامية العربية فرد طلبه ، وهذا غاية ما ورد عنه .

ان المؤرخين اغفلوا ترجمة والد المهلب ، رغم انهم عنوا عناية كبيرة وواضحة بترجمة واخبار المهلب وذراريه . وليس فى هذا الامر من غرابة ، ذلك ان الوالد لم يشتهر مثلما اشتهر ابنه المهلب وأولاده واحفاده في ميادين الادارة والحرب والثقافة ، ولم يترك والد المهلب مثلما تركوا هم آثاراً رفعت من شأنهم .

كان والد المهلب ـ على ما يبدو ـ مجرد وجيه من

وجهاء الازد ، ولولا اشتهار المهلب وذراريه ، لربما اغفل ذكره ، كما اغفل ذكر آلاف مثله ، عاشوا وماتوا وانتهى امرهم بنهاية حياتهم ولم يذكرهم التاريخ ٠

كان المهلب صبيا يافعا عندما انتقلت اسرته الى البصرة ، تلك المدينة التي انشئت بمثابة معسكر تنطلق منه الجيوش المعدّة للفتح ونشر الاسلام باتجاه المشرق ، ثم صارت من امهات المدن العربية ونشر الاسلام باتجاه المشرق ، ثم صارت من امهات المدن العربية الاسلامية التي قامت بأدوار سياسية خطيرة في التاريخ العربي الاسلامي وعرف عن قبائلها المقيمة في اطرافها وضواحيها ، احتفاظها بخصالها العربية الاصيلة ونزعتها الى الفروسية والقتال ومع ان عدداً غير يسير من ابنائها وزعمائها سكنوا جوف المدينة ، الا انهم لم يقطعوا صلتهم بعشائرهم ما دامت هي قوتهم وسندهم في الملمات ٠

وكانت البصرة الى ذلك تنعم بمركز تجاري خطير جعلها تصبح طريق التجارة الى الهند والصين ، فعظمت تجارتها واتسعت رقعتها على نحو سريع ، وازدهرت الحركة العلمية والفكرية فيها ٠ (١٠)

في هذا المحيط المشجع على الفروسية والاقدام ، وحيث امتزجت البداوة والحضارة نشأ المهلب بن أبي

صفرة ، فأثر ذلك المحيط في تكوين شخصيته العسكرية والادارية المتميزة ٠

اننا ــ للاسف ــ لا نعلم الكثير عن طفولة المهلب ونشاته ومطلع حياته ، فليس بين أيدينا من المعلومات ما يجلي الغموض الذي يكتنف شخصيته فى هذا الطور من حياته ، لكن الواضح ان والده حرص على تربيته تربية عالية تجلت فى تدريبه على الفروسية والشجاعة والصبر على الشدائد وكتمان السر ، وغير ذلك من الصفات العربية القويمة .

ونستشف من اخبار المهلب واقواله ــ فيما بعد ــ انه كان متدفق الحيوية ، وقد واصل تثقيف نفسه بثقافه عصره التي شهدتها بيئته ، فتعلم قراءة القرآن الكريم والسنن وآداب الصالحين ، واظهر اهتماما متزايداً بالحديث النبوي الشريف ، حتى عدّ من ثقات البصريين[١١] ومع انه ادرك عمر بن الخطاب (رض) الا انه لم يروِ عنه[١٢] ، بل روى عن سمرة بن جندب وعن عبدالله بن عمر ، وقد روى عنه ابو اسحاق السبيعي وسماك بن حرب وعمر بن سيف[١٣] .

ويبدو لنا ان اهتمام المهلب بالحديث كان ناتجا عن تأثره بالصحابة الافاضل الذين عاشوا فى البصرة بعد تمصيرها ، حيث خلق وجود عشرات الصحابة في ذلك

العصر ، جواً دينيا ادى فيما بعد الى انطلاق فعالية قوية تمثلت في الدروس القرآنية والحديث والابحاث الدينية واللغوية المتنوعة ٠

ولم يقصر المهلب نفسه على طلب العلوم الدينية فحسب ، بل كان يستفسر من بعض الصحابة عن بعض الامور التي كان يجهلها ، طموحا منه في الاستزادة من المعرفة وتوسيع مداركه الثقافية ، كما كان يفتح مجلسه للحكماء والشعراء ويكرمهم ـ وكان ذلك بعد ان علا أمره ـ وأكثر من ذلك فان نشأته الاولى قد أثرت تأثيرا عميقاً واضحا في شخصيته وسلوكه على مدى حياته ، فنراه يحرص على عكس قيمه على ابنائه الذين تربوا في كنفه ، فشدد عليهم ان لا يقفوا في الاسواق الا على من يبيع السلاح او الكتب(١٤) ، من أجل ان يستكملوا اسباب الفروسية والعلم ٠

شخصيته وصفاته :

يمكننا ان نلقي بعض الضوء على شخصية المهلب من خلال احاديثه ، ومن الاشارات المشتتة في بطون المصادر المختلفة ٠ ورغم شحة المعلومات التي تعقبناها واستقرأناها لنجمع من هنا وهناك ملامح شخصيته وصفاته واخلاقه وميوله واتجاهاته ، تكونت لدينا صورة تكاد تكون واضحة عن تلك الملامح ٠

وصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه ، يفضل فعله على لسانه ، متلطفا في اجاباته ، كاتما للسر ، حليما في موضع الحلم ، شديدا في موضع الشدة[١٥] وان كان الحلم غلب عليه ، فيروى ان رجلا شتمه فلم يرد عليه « فقيل له : لم حلمت عنه ؟ قال : لم اعرف مساويه وكرهت ان أبهته بما ليس فيه»[١٦] ، وقد ساعدته هذه الخلة الحميدة في خلقه ـ كما سنرى ـ على ان يعرف خلق الحجاج بن يوسف الثقفي ، وان يظهر الفظاظة له حيناً والخشونة احيانا ، ولكنه لم يبلغ معه حد القسوة والجفوة .

واتصف المهلب بصبره وأناته في اعماله وحروبه ، وكان يقول :

« أناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك » .[١٧]

وعندما كان الحجاج يحثه ويستعجله بمناجزة الازارقة الخوارج ، اجابه يقول :

« ان البلاء كل البلاء ان يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره » .[١٨] وهذا يعني انه كان يرقب فرصته المواتية لانزال ضرباته الشديدة بالخوارج ، فهو ادرى من الحجاج في تقدير الموقف الميداني لمنازلتهم ، وهذا مما

تتطلبه الحرب في معرفة اوقات الاقدام والاحجام في القتال .

ومما اشتهر به المهلب في حروبه الكثيرة ، هو اعداده للبيات واحكامه لاموره ، اي انه كان يباغت اعداءه بشن الهجوم عليهم ليلا ، فيشن غاراته عليهم فيداهمهم ، ويحرز عليهم انتصارات مؤزرة .

وهكذا تبدو لنا شخصيته العسكرية المتميزة في حروبه الطويلة ، بصورة الفارس المغوار والبطل المقاتل الذي اقلق الخوارج واستأصل شأفتهم ، ووقف نشاطه وجهده ، بل وحياته على نشر الاسلام في جبهات عدة في بلاد المشرق ، ونهض باعبائها على خير ما يرام ، فاستحق التقدير والاعجاب .

واشتهر المهلب ايضا بكرمه وسخائه ، فكان يعتقد ان خصلة السخاء « تسد عورة الشريف وتمحق الوضيع »[19] وبتعبير آخر فانه ادرك ان السخاء اداة من ادوات الرفعة في المجتمع ، فضلا عن انه وسيلة من وسائل الدعاية في عصره ، فقد كان ذوو الحاجات يقصدونه ، فيكرم مثواهم ويقضي حوائجهم ويمدهم بالصلات ، فاستحق قول الشاعر فيه :

مالي ارى ابوابهم مهجورة ؟

وكأن بابك مجمع الاسواق

هابوك أم خافوك ام شاموا الندى ؟

بيديك فاجتمعوا من الآفاق

وبلغ المهلب منتهى الايثار حين قال لابنائه :

ما رأيت احداً بين يدي قط ، الا احببت ان ارى ثيابي عليه ، واعلموا يابني ان ثيابكم على غيركم احسن منها عليكم » .(٢٠)

وانعكس افراطه في الجود على ابنائه ، فاستولوا بسخائهم على قلوب الناس ، وصاروا اهدافاً للمديح والثناء .

كفاءته الحربية :

يمكننا ان نضع المهلب في صف القادة العرب العظام ، فكان قائداً ومقاتلاً من الطراز الاول ، تميز بكفاءة قتالية فائقة وبخبرة واسعة في الحروب ، فقد عجم عود الحرب وخبرها ، وذاق كؤوسها حلوة ومرة ، والتحف لباسها مرة تلو اخرى ، فارضعته بلبانها وجرّسته وضرّسته(٢١) .

كان ثابت القلب ، تام الشجاعة ، كثير الحذر ، شديد الحزم ، بصيراً باحكام مواضع المباغتة في الحرب ، فهو يجيد تحين الفرص فيها ، ويرى « ان الاقدام على الهلكة تينيع ، كما ان الاحجام عن الفرصة جبن » ، وكان الى جانب هذا عارفا بالمكائد والخداع ، صبوراً على المطاولة

في القتال والحصار ، وينزل اصحابه وجنده في الحرب كلاً بمنزلتـه ، وممـا يروى فـي هـذا الصـدد ، ان رجلاً من عسكره اسمه بيهس قد غاب عنه ، فقال « مـا يسرني ان يكون في عسكري الف شجاع ويغيـب عنـي بيهس . فقيل له انه ليس من المحل السامي من الشجاعة ، فقال : نعم ، ولكنه شديد الحزم محكم العقل ، فلو كان مكانه الف شجاع ، لما امنت عليهم [٢٢] .

وكان المهلب شديد الاحتياط والحذر في حروبه ، لا ينزل الا ويخندق على جيشه ، وربما تولى الحراسـة بنفسه او استعان بابنائه ، أو من يحل في الثقة عنده ، ولحرصه على جنده فانه كان يأمرهم بالتحرز ويحـذرهم البيات ، أي ان يأتيهم العدو ليلاً ، ويحذرهم من المكيدة ، ويبث الاحراس في الامن والخوف على حد سواء ، ويذكي العيون في المدن كما يذكيها في الصحارى [٢٣] ، لتوافيه باخبار العدو ، ولا ريب فان مثل هذه الاجراءات التحوطية الامنيةالتي يضربها حول عسكره ، انما تجنب مقاتليه مباغتة [illegible] لهم .

وكان المهلب ايضاً شديد العناية بجنده ، ويعنى بهم كعنايته بابنائه ، وقد شبهه صاحب (العقد الفريد » بالوالد الرؤوف لابنائه البررة [٢٤] ، ولا يخفى ان هـذه المعـاملة

الطيبة التي يسديها المهلب لجنده ، تقربهم اليه وتزيد في طاعتهم له ، وتدفعهم الى الاستبسال في ميادين القتال .
زد على ذلك فاننا نرى المهلب أثناء محاربته للازارقة الخوارج ، ينفق على جنده عن سعة مما كان يجبى من خراج ، اي انه كان يلبي حوائجهم وحوائج عوائلهم .

والى جانب ما تقدم ، كان المهلب على معرفة جيدة باهواء ونفسية جنده العراقيين ، فهو الذي كتب الى الحجاج ابن يوسف الثقفي ، ايام خروج عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث قائلا :

« اما بعد : فان اهل العراق قد اقبلوا اليك وهم مثل السيل المنحدر من عل ، ليس شيء يرده حتى ينتهي الى قراره ، وان لأهل العراق شره في اول مخرجهم (للقتال) وصبابة الى ابنائهم ونسائهم ، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا الى اهليهم ، ويشموا أولادهم ، ثم واقفهم عندها »[٢٥]

لقد شهد اعداء المهلب الذين حاربهم ، بقابلياته ومواهبه العسكرية المتميزة ، فوصفه قطري بن الفجاءة أحد زعماء الخوارج الازارقة ، بتحذيره لاصحابه من المهلب قائلا :

« اذا اخذتم بطرف ثوب اخذ بطرفه الآخر ، يمده لذا ملتموه ، ويرسله اذا مددتموه ، لا يبدؤكم الا ان

تبدعوه ، الا ان يرى فرصة فينتهزها فهو الليـــث المبرّ والثعلب الرواغ والبلاء المقيم » .(٢٦)

ونعته الازارقة بـ « الساحر » لانهم كانوا يدبرون ضده في الحرب ، فيجدونه قد سبق الى نقض تدبيرهم .

ونظراً للحروب الكثيرة والشديده التي خاض المهلب غمارها ، فانه استطاع ان يطور بعض عدد الحرب المستعملة في زمانه ، ومن ذلك فانه يعد اول من اتخذ الركاب مـن الحديد من العرب ، وكان يصنع قبله من الخشب ، فينقطع ويبقى الفارس يضرب ويطعن دون ان يكون له معين او معتمد يحول دون سقوطه عن ظهر فرسه (٢٧) .

حالتـه المعاشية :

ونحن نتحدث عن المهلب ، نرى من المناسب ضرورة التعرف على حالته المعاشية .

يبدو لنا انه لم يكن ميسور الحال اول الامر ،لأنه كان يتعين احيانا(٢٨) ، والعينة هي الفائدة التي تضاف الى ثمن البضاعة عن المدة التي يؤجل فيها الدفع عن ثمن الشراء .
ويقول الطبري :

« ولم يكن عند المهلب مال ، كان اذا عزل استقرض[٢٩] » ولعل ذلك يعود الى كونه رئيس عائلة كبيرة ، وحسبنا ان يكون له من الاولاد عشرة ، هذا فضلاً عن نزوعه المفرط الى الجود منذ مطلع اشتهاره ٠

ولاشك انه بلغ الغنى والثراء فيما بعد ، نتيجة لما درته عليه حروبه وفتوحاته وولايته على خراسان من اموال طائلة ، فصار الى جانب ذلك يمتلك واسرته قطائع في البصرة ٠ ولعل هذا يفسر لنا قول بعض المصادر عنه ، انه كان « بستانياً » [٣٠] وهو وصف اريد به الذم دون ريب ٠

تمسكه بقبيلته وخطبه ود الناس :

ابدى المهلب تمسكاً قويا بقبيلته التي كانت سنده في مهماته الحربية ، لهذا فانه جعل اكثر جيشه الذي حارب به الازارقة ، من ازد عمان ٠ ويتجلى لنا التمسك ايضا ، في وصيته لابنائه بقومه ، اذ خاطبهم قائلا :

« يابني قومكم ، انه ليس لكم فضل عليهم ، بل هم افضل منكم ، اذ فضلوكم وسودوكم ووطئوا اعقابكم ، ولغوا حاجتكم فيما اردتم ٠٠ فان طلبوا فاطلبوهم ، واذا

سألوا فاعطوهم ، وان لم يسألوا فابتدئوهم ، وان شتموا فاحتملوالهم ، وان غشوا ابوابكم فلتفتح لهم »[٣١] .

ولاشك ان تمسك المهلب بقبيلته امر طبيعي ، اذا علمنا ان العصبية القبلية كانت من سمات عصره الـذي عاش فيه ، فلولا مساندة قومه الازد له ، لما بلغ ما بلغ من الشهرة وذيوع الصيت ، على الرغم من كـل قابليـاته ومواهبه الاخرى المتمثلة بشخصه .

ومع تمسك المهلب بقبيلته ، فاننا نراه يحاول جهده خطب ود الناس ، ويبدو لنا ذلك واضحاً في قوله المأثور :

« عجبت لمن يشتري المماليك بماله ، ولا يشتري الأحرار بمعروفه [٣٢] » .

هوامش الفصل الاول

(١) ابن قتيبة ، المعارف : ٣٩٩ ٠ المبرد ، نسب عدنان وقحطان : ٢٢ ٠ ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب : ٤٦/١ ٠ الذهبي ، تاريخ الاسلام : ٢٠٧/٣ ٠

(٢) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة : ٢٠٥/٧ ـ ٢٠٦ ٠ ياقوت ، معجم البلدان : ٣٨٧/٢ ٠

(٣) راجع ديوان الفرزدق : ٢٠٨/١ ٠

(٤) الاعلاق النفيسة : ٢٠٥/٧ ـ ٢٠٧ ٠

(٥) ابو الفرج الاصبهاني ، الاغاني : ٧٧/٢٠ ٠

(٦) وفيات الاعيان : ٤١١/٥ ٠

(٧) يوهان فك ، العربية : ٢٤ ٠

(٨) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٣٥١/٥ ٠ ابن حجر العسقلاني ، الاصابة : ٣٨٦/٦ ٠

(٩) ابن حجر العسقلاني ، الاصابة : ٢٢٠/٧ـ٢٢١ ٠

(١٠) الدكتور طه الحاجري ، الجاحظ حياته وآثاره : ٢٦ ـ ٢٧ ٠

(١١) البستي ، الثقات في الصحابة والتابعين واتباع التابعين : ٢٦٤ ٠

(١٢) ابن سعد ، الطبقات : ٧/ق١ : ٩٤ ٠

(١٣) البخاري ، التاريخ الكبير : ٤/ق٢ : ٢٥ ٠ البستي، الثقات : ٢٦٤ ٠

(١٤) الجاحظ ١ الحيوان ، :٥٢/١ ٠ ابن قتيبة ، عيون الاخبار : ١٩٢/١ ٠

(١٥) انظر : الدينوري ، الاخبار الطوال : ٢٨١ .
ابو هلال العسكري ، المصون في الادب : ١٨٧ .
الجاحظ ، المحاسن والاضداد : ١٤
المبرد ، الكامل في اللغة والادب : ٢/٣١٤ .
البيهقي ، المحاسن والمساوىء : ٢/٨٩ .
(١٦) المبرد ، الفاضل : ٨٩ . البيهقي ، المحاسن والمساوىء ٢/٩١ .
(١٧) ابن عبد ربه ، العقد الفريد : ١/٨٧ .
(١٨) الجاحظ ، البيان والتبين : ١/٢٥٣ . المبرد ، الكامل : ٣/٣٧٧ .
(١٩) الذهبي ، تاريخ الاسلام : ٣/٣٠٨ .
(٢٠) ابو حاتم السجستاني ، المعمرون والوصايا : ١٤٢ .
ابو هلال العسكري ، الاوائل : ٢٧٠ .
ابو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر : ١/٣١٣ .
الثعالبي ، التمثيل والمحاضرة ١٣٤ .
(٢١) ابو علي القالي ، الآمالي : ٣٢ .
(٢٢) الانصاري ، تفريج الكروب في تدبير الحروب : ٤٤ .
(٢٣) المبرد ، الكامل : ٣/٣١٥ .
(٢٤) العقد الفريد : ١/٢٧٨ .
(٢٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك : ٥/٣٣٩ .
(٢٦) مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء : ٢٨٢ .
(٢٧) ابو هلال العسكري ، الاوائل : ٢٧٠ . القلقشندي ، صبح الاعشى : ٢/١٣٦ .
(٢٨) الثعالبي ، لطائف المعارف : ٤٣٤ .
(٢٩) تاريخ الطبري : ٦/٣٢٠ .
(٣٠) ابو حيان التوحيدي ، البصائل والذخائر : ٢/ق١:٤٤ .
(٣١) السجستاني ، المعمرون والوصايا : ١٤١ . اسامة ابن منقذ ، لباب الآداب : ٢٩ .

(٣٢) الحصري ، زهر الاداب : ٤١٢/١ . ابن نبــــاته ، مسرح العيون : ١١٣ .

الفصل الثاني

دور المهلب في حروب التحرير والفتوحات الاسلامية

اسهامه في حروب التحرير والفتوح :

أشارت بعض المصادر الى اسهام المهلب بن ابي صفرة في حروب التحرير العربية والفتوحات الاسلامية ، منذ عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض) فذكرت انه شهد مع الجيش العربي الاسلامي تحرير مناذر ، وهي من نواحي الاحواز من سيطرة الفرس ، حيث اصاب العرب المسلمون سبياً ، فرده الخليفة المذكور الى اهلها (١) ، انطلاقا من مبادىء العرب ورسالتهم السامية ، وتسامحاً مع اهل المدينة المحررة .

وذكر عنه ايضاً انه أسهم مع جيش القائد سعد بن ابي وقاص في تحرير العراق ، فبلغ سعداً شيء فعله المهلب بالعدو الفارسي ، فدعا له سعد قائلا « اللهم لا تره ذلاً » حتى ذهب الناس في تأويل قول الجاحظ ، الى ان

ما ناله المهلب من شهرة فيما بعد كان بفضل تلك الدعوة [٢] .

اننا نشك في صحة هذه الرواية ، ونستبعد ان يقبل كبار قادة التحرير العربي في صفوفهم صبياً حدثا لايتجاوز بعد التاسعة من عمره ، ان لم يكن اصغر سناً من ذلك . كما ان اضفاء صفة البطولة عليه ، وانزاله الضربات الشديدة بالاعداء في هذا الدور المبكر من حياته ، وخصه بالمديح والاطراء من بين القادة العرب ، يبعد الرواية المذكورة عن الحقيقة التاريخية ويجعلنا نميل الى عدم الاخذ بها .

وقد انفرد ابن حجر العسقلاني [٣] ، برواية تقول ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) عقد اول لواء للمهلب حين انهزمت الازد في يوم الجمل (سنة ٣٦هـ) وتوحي لنا هذه الرواية ان أزد البصرة كانوا مع عليّ (رض) في تلك المعركة ، في حين انهم قاتلوا ضده كما هو معروف ، واننا لم نقف على ما يؤيد تلك الرواية في مصادرنا المتوفرة . ومع ذلك فاذا صحت هذه الرواية ، فان هذا يعني ان بعض الازديين ومن بينهم المهلب ، ساندوا الخليفة علي (رض) في تلك المعركة . ولا يبدو هذا مستبعداً ، اذا علمنا ان نفراً من بكر انحازوا الى طلحة والزبير في معركة الجمل ، في حين ان بكراً عموماً كانت تساند علياً .

لقد اوضحت مصادرنا بشكل جلي دور المهلب في الفتوحات العربية الاسلامية في جبهة المشرق منذ سنة ٤٢هـ ، ففي هذه السنة ، اسهم في الحملة التي قادها عبدالرحمن بن سمرة الى سجستان ، حيث تم فتح بعض كورها(٤) .

وفي سنة ٤٤هـ ، قصد المهلب ارض الهند ، فسار الى قندابيل ، ثم استولى على بنّة ولاهور الواقعتين بسفح جبل كابل ، وغنم كثيراً وعاد(٥) ، والظاهر ان هذه الحملة كانت سريعة ، استهدفت تعرف العرب المسلمين على احوال الهند وبعض افغانستان ، تمهيداً لحملات اخرى لاحقة تقوم بمهمة نشر الرسالة الاسلامية في تلك الربوع .

وفي سنة ٥٠هـ ، اسهم المهلب في حملة الحكم بن عمرو الغفاري ، على جبل الأشل وهو من ثغور خراسان . وقد تعرض العرب الى حصار شديد ضربه عليهم الاتراك في ذلك الثغر ولكن المهلب تمكن ببراعته القتالية وحسن تدبيره من انقاذ الموقف ، وانزال ضربة شديدة بالاعداء ، والحصول على غنائم عظيمة منهم .(٦)

وفي سنة ٥٦هـ ، كان المهلب في طليعة جيش سعيد ابن عثمان بن عفان والي خراسان ، الذي قصد فتح سمرقند

في بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وقد خرج الصغد وهم من اتراك آسيا الوسطى للقاء الجيش العربي الاسلامي ، الا انهم هزموا امامه ، ودخلوا المدينة وتحصنوا فيهـا ، فشدد سعيد بن عثمان الحصار عليهم حتى اضطرهم الى طلب مصالحته فأجابهم الى ذلك ، بعد ان قدموا له خمسين غلاماً من ابناء كبرائهم رهائن ضمانا لتوكيد الصلح وعدم نقضه ٠(٧)

والجدير بالذكر ان احدى عيني المهلب قد فقئت في هذه الحملة ـ على حد قول بعض الروايات ، الامر الذي يظهر لنا مدى تفانيه في القتال واصراره على احراز النصر على الاعداء ٠

وفي سنة ٦١هـ ، الح المهلب على سلم بن زياد والي خراسان ، ان يجهزه بجيش لمحاربة « ملوك الكفار » الذين كانوا يتجمعون في احدى المدن الخراسانية ممـا يلـي خوارزم ، ويخططون لصد العرب المسلمين وتهديد سلطانهم في المشرق ٠ ولما كان سلم مطمئناً الى مناصحة المهلب له ، فقد وافقه على رأيه ، ووجهه على رأس ستة آلاف مقاتل وقيل اربعة آلاف ، فسار المهلب لمحاربة اولئك الكفـار ، فحاصرهم حتى اضطرهم الى مصالحته على فدية كبيـرة

واشياء اخرى قدرت قيمتها بنيّف وعشرين ألـف الـف (درهم) فنال بذلك حظوة كبيرة عند سلم الذي اصطفى من الغنائم ما اعجبه وبعث بالباقي الى الخليفة يزيد بـن معاوية .

وخلال ولاية سلم بن زياد على خراسان ، تمردت مدينة بخارى على العرب المسلمين ، فاضطر سلم الى محاربة اهلها الذين تحصنوا فيها ، متخذين وسـيلة التمـرد والعصيان سلوكا ضد العرب . ولما رأت الملكة (خاتون) انها عاجزة بمن معها عـن صـد المسلمين ، استنجدت بطرخون ملك الصغد ، وعرضت عليه زواجها منه وتسليمه البلد ، فأجارها طرخون بمائة وعشرين الف رجل ، كما وصلتها امدادات اخرى من اتراك الشمال ، غير ان هـذا العدد الضخم من الاعـداء لم يفـل عزيمة العرب المسلمين ، بل انهم زحفوا نحو بخارى وحاصروها من غير ان يفكروا بدخولها واقتحامها ، حتى يتاكدوا مـن عـدد عدوهـم وامكانياته .(٨)

ازاء هذا الموقف الخطير الذي يحتم علـى العـرب المسلمين مجابهته بكل شجاعة وحزم عهد سلم بن زياد الى المهلب باستطلاع احوال العدو ، الا ان المهلب اعتـذر له باعتبار ان مهمة الاستطلاع هي من شان مـن دونه فـي

المنزلة ، وان ارساله بهذه المهمة لا يتناسب وقابلياتـه العسكرية المتميزة . غير ان سلماً لم يعفه ، وحينـذاك اختار المهلب لمهمته الاستطلاعية رجلاً من كل لواء ، وانطلق بهم سراً ، وحينما سمع باقي الجند في الصباح بما انيط بالمهلب من مهمة ، سرى التذمر بينهم حسداً له وقـالوا :

« انه (سلم) ارسل المهلب ليصيب من الغنيمة اكثر منا ، ولو كانت الحرب قائمة لأرسلنا معه » (٩) .

وهكذا استبد الغضب بفريق مـن الجيش العـربي الاسلامي ، فخرجوا يطلبون المهلب حتى لحقوا به ، ونبههم الى انهم بتصرفهم هذا قد افسدوا عليه خطته ، اذ انهـم استرعوا انتباه العدو الذي بادر الى مهاجمتهم ، واسـفر الموقف عن أشتباك سريع بين الجانبين ، فاستشهد اربعمائة من المسلمين وتراجع الباقون ، واحاط الاعـداء بالمهلب نفسه ومن بقي معه من جنده ، وهنا صاح المهلب باعلى صوته مستغيثاً وطالباً النجدة السريعة من العرب المسلمين، وكان في موقف تحفه غمرة اليأس . وقد سمع مـن فـي المعسكر العربي صوت المهلب بطلب الاغاثة ، فبـادر الى نجدته قسم من قومه عليهم عبدالله بن جـودان ، فقوي بأس المهلب وتشجع اصحابه بتلك النجدة التي انضمت

اليهم في الموقف المحرج ، واشتدوا في قتالهم وصبرهم في النزال ، حتى الحقوا الهزيمة بالكفار وغنموا كثيراً ٠

واخيراً اضطرت الملكة خاتون المحاصرة في سمرقند الى اعلان خضوعها للعرب المنتصرين ، وعقد الصلح معهم من جديد(١٠) ٠

وبعد هذه الحادثة ازداد المهلب حظوة عند سلم بن زياد الذي ابقاه الى جانبه حتى سنة٦٤هـ ، وهي السنةالتي توفي فيها يزيد بن معاوية ، وبايع الناس بخراسان لسلم ريثما يتم تنصيب خليفة جديد ، غير انهم عادوا فنقضوا بيعته ، فقرر حينئذ مغادرة خراسان واستخلاف المهلب عليها ٠

ولما رأى رجال القبائل العربية من النزارية والمضرية ، ما اقدم عليه سلم باستخلافه المهلب وهو ازدي يماني ، احتجوا على سلم بن زياد واضطروه الى تولية سليمان بن مرشد من النزارية ، على مرو الروذ والجوزجان والفارياب والطالقان ، وتولية اوس بن ثعلبة بن زفر بن بكر بن وائل على هراة ، وتولية عبدالله بن خازم السلمي من المضرية على مرو ٠

وهكذا انقسمت خراسان الى ولايات عديدة تبعاً لاهواء ومشيئة رجال القبائل العربية ٠ ولما رأى المهلب ذلك ، قرر

اعتزال ولاية مرو فاعتزلها فعلا واستخلف عليها رجلاً من بني جشم بن سعد بن مناة بن تيم ، ثم عاد الى البصرة في سنة ٦٥هـ .

ولما عاد المهلب الى البصرة ، وجد امامه ميدانا عسكريا فسيحا ، ونعني به محاربته لفرقة الازارقة الخارجية التي استفحل خطرها ، فحارب هذه الفرقة سنوات عديدة لحساب الزبيريين تارة ، ولحساب الامويين تارة اخرى ، على نحو ما سنعرض اليه في الصفحات القادمة .

« هوامش الفصل الثاني »

(١) البلاذري ، فتوح البلدان : ٥٣٣ ٠

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين : ٢٧٨/٣ ٠

(٣) الاصابة : ٣٨٨/٦ ٠

(٤) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة : ١٨٩/١ ٠ ابن حجر ، الاصابة : ٣٩٣/٢ ٠

(٥) تاريخ خليفة بن خياط : ١٩١/١ ٠ الذهبي ، تاريخ الاسلام : ٢١٠/٢ ٠

(٦) تاريخ الطبري : ٢٥١/٥ ٠

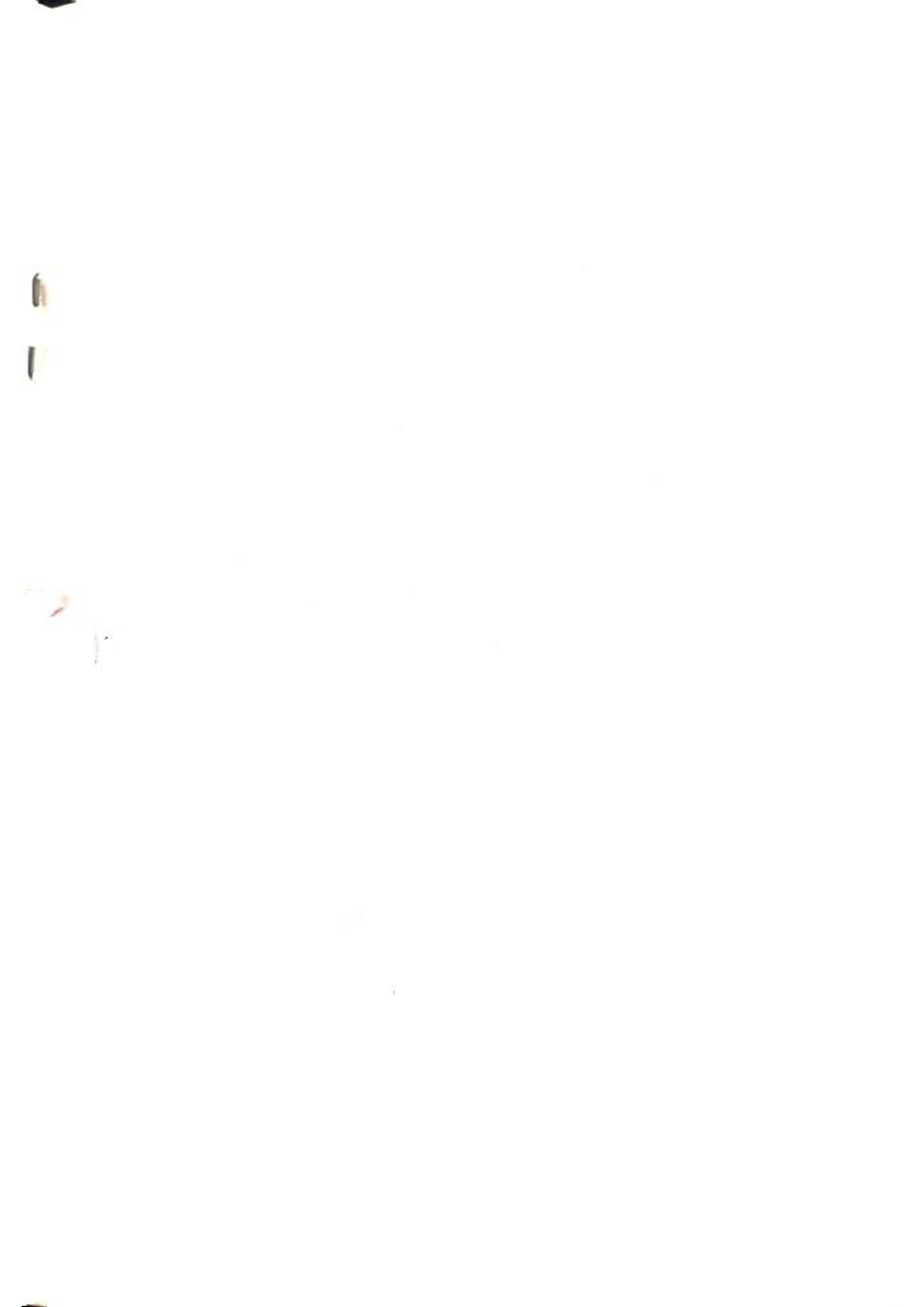
(٧) م ٠ ن ٠ : ٣٠٦/٥ ٠

(٨) النرشخي ، تاريخ بخارى : ٦٦ ٠

(٩) م ٠ ن : ٦٦ ٠

(١٠) م ٠ ن ٠ : ٦٧ ٠

(١١) د ٠ نافع العبود ، آل المهلب بن ابي صفرة : ٥٥ ٠



الفصل الثالث

محاربة المهلب للازارقة الخوارج

اولا ـ في عهد الزبيريين :

بدأت حركة الخوارج بين الكوفيين الذين خرجوا على الامام علي بن ابي طالب (رض) احتجاجا على قبوله التحكيم ، وظلت حركتهم تتسع ، فانقسموا على انفسهم ولكنهم رغم انقسامهم اتفقوا على معارضة الدولة الاموية ، ونادوا بالمساواة بين انصارهم ، واتخذوا موقفاً عنيفا تجاه خصومهم ، وقد تطرفت فرقة الازارقة منهم فأباحت قتل نساء وشيوخ خصومها ·

ينتسب الازارقة الى رئيسهم نافع بن الازرق الذي انضم مع اصحابه الخوارج الى حركة عبدالله بن الزبير في الحجاز ، وفارقوه عندما تبين لهم انه لم يكن على رأيهم فيما يذهبون اليه وحاربهم في هذا السبيل [١] ·

وقد انبث افراد هذه الفرقة المتطرفة في مناطق البصرة والاحواز وما وراءها من بلاد فارس وكرمان في

ايام عبدالله بن الزبير ، وصاروا يحاربون جهارا من اجل احقاق تعاليم الدين ـ كما فسروها هم ـ وامتازت حروبهم بعنف واندفاع الانجده في خروج اية فئة على السلطان في ذلك العصر ، فقد تمكنوا من انزال الهزائم المتكررة بالجيوش التي حاربتهم ، قبل ان يتولى المهلب قتالهم ·

جاءت تولية المهلب حرب الازارقة بناء على اختيار اهل البصرة له واقتران ذلك بموافقة عبدالله بن الزبير · على ان المهلب لم يخرج لقتالهم الا بعد ان اشترط على اهل البصرة جملة شروط اجابوه اليها ، فخول الحق باختيار من يشاء من المقاتلة ، وان تكون له امرة وخراج كل بلد يقع في حوزته ، لينفق على جنوده (٢) ·

وقد انتخب المهلب من اخماس البصرة أثني عشر الفاً ، وقيل في رواية اخرى انه انتخب عشرين الفاً ، من الازد ثمانية آلاف رجل وبقيتهم من سائر العرب · ثم انه قدر قبل خروجه لقتال الخوارج ، ان الحرب ستدوم طويلا وستكلف كثيراً ، فاتجه الى الاقتراض من التجار الذين ألحق الأزارقة ضرراً كبيراً بتجارتهم وقال لهم : « ان تجارتكم مذ حول قد كسدت عليكم بانقطاع مواد الاحواز وفارس عنكم ، فهلم فبايعوني واخرجوا معي أوفكم ان شاء الله حقوقكم » (٣) فوافقوه على طلبه فأخذ من المال ما

يصلح به عسكره ، وبعد ان وفّر المهلب مستلزمات الحرب المادية ، جمع اصحابه وخطب فيهم مستنهضا هممهم ، باعثاً الحماس في نفوسهم ، طالباً اليهم ان يجدّوا في قتال الازارقة الخوارج ، محذراً اياهم من عار الهزيمة والخذلان ، قائلا لهم : « فالقوهم بجدّ وحدّ ، فانما هم مهنتكم وعبيدكم ، وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم ان يغلبكم هؤلاء على فيئكم ويطأوا حريمكم »(٤) .

لقد باشر المهلب حربه للازارقة في سنة ٦٥هـ ، وخاض جيشه أعنف المعارك ضدهم ، فأجلاهم عن منطقة البصرة ، ثم احرز انتصارات مهمة عليهم في « سلى » و « سلبرى » وهما موضعان بالاحواز ، وقتل رئيسهم نافع بن الازرق ، فولوا عليهم عبدالله بن ماحوز الذي قتل هو الآخر فانصرفوا بعد ذلك الى أرّجان ، ثم الى اصفهان .

وظل المهلب مقيماً على حرب الازارقة وولاية فارس ، الى ان استدعاه مصعب بن الزبير اليه سنة ٦٧هـ ، لمساعدته في القضاء على حركة المختار بن ابي عبيد بن مسعود الثقفي ، التي كانت تهدد الحركة الزبيرية في العراق • وكان المختار هذا زبيريا اول الأمر ثم حوّل ولاءه وتغلب على الكوفة(٥) • ويلاحظ ان المهلب حاول ان يعتذر

عن محاربة المختار متظاهراً بانشغاله بجباية الخراج ، غير أن مصعباً لم يعذره ، فسار حينئذ بجموع كثيرة واموال عظيمة من فارس لاسناد مصعب الذي جعلـه على ميسرة جيشه الزاحف نحو الكوفة ، وانتهى الأمر اخيراً بقتـل المختار واخماد حركته ٠

وبعد فراغ مصعب بن الزبير من امر المختار ، لـم يُعدِ المهلب الى ولاية فارس ومحاربة الازارقة ، كما كان مؤملاً ، بل انه وجهه في سنة ٦٨هـ والياً على الموصـل والجزيرة واذربيجان وارمينية ، ليجعله حاجزاً بينه وبين عبدالملك بن مروان الذي كان يتطلع الى القضاء على الحركة الزبيرية في العراق ٠ وقد قام المهلب خلال ولايته هـذه بتعقب الخشبية(٦) ، وهـم من اتبـاع المختـار الثقفي ، فحاصرهم في نصيبين ، ثم اغرى رجلا من بني عبدالقيس . ودسه الى رئيسهم يزيد بن ابي صخر فأغتاله(٧) .

والمهم في الامر هنا ، هو ان الازارقة وجدوا في ابتعاد المهلب عنهم فرصة مواتية لمعاودة نشاطهم ، فانقضوا على عمر بن عبيدالله بن معمر (خلف المهلب بفارس) فلـم يقوَ على صدهم ، وواصلوا زحفهم الى سابور وارجان ، ثم

بلغوا الاحواز ، وصاروا يهددون البصـرة مـن جديـد ، وحينذاك خرج مصعب بن الزبير لقتالهم ، فصاروا بينـه وبين عمر بن عبيدالله الذي سار من خلفهم ، فعطفوا نحو ارض جوخا من سواد بغداد ، وشنوا غاراتهم على المدائن وساباط واثاروا الرعب في قلوب الناس الآمنين في تلك النواحي لقتلهم النساء والولدان والرجال .

لقد أثارت افعال الازارقة المنكرة هذه الهلع في قلوب البصريين ، الذين شعروا بالفراغ الكبير الذي تركه ابتعاد المهلب عنهم ، فالحوا على مصعب ان يعيد المهلب الى حرب الازارقة فوافقهم على رأيهم واعاده . وبعودته استؤنف قتال الازارقة من جديد وبأعنف صورة طيلة ولاية مصعب على العراق .

وقد تعدى أخلاص المهلب للزبيريين هذا الحـــد ، فعدا قتاله الازارقة لحسابهم ، فانه عارض فـي مبايعـــة عبدالملك بـن مـروان الـذي حـاول اخـذ البيعة لنفسه من اعيان اهل البصرة ، الذين كاتبوه بالأمر ، وذلك فـي سنة ٧٠هـ . (٨)

ومما يجدر ذكره ان امر اخذ البيعة لعبدالملـك بـن مروان لم يتم ، اذ زحف عمر بن عبيدالله بن معمر القرشي عامل مصعب على البصرة في الزبيرية واهل البصرة للقاء خالد بن عبدالله بن أسيد مبعوث عبدالملك في تلك المهمة ،

فهزمه واضطره الى العودة الى مرسله ٠

وظل المهلب على حرب الازارقة الى سنة ٧١هـ ، حين سار عبدالملك بن مروان الى العراق لمحاربة مصعب ابن الزبير ، ولما بلغ هذا مسير عبدالملك اليه ، بعث الى المهلب يستشيره في ما يفعل ازاء الموقف المحرج الذي هو فيه ، فاقترح المهلب عليه ان يعفيه من مهمة حرب الازارقة ليكون الى جانبه ، ولكن مصعباً لم يأخذ برأيه بل طلب اليه ان يكفيه مدافعة الازارقة الذين تقدموا نحو سوق الاحواز، وصاروا يهددون البصرة .(٩)

وهكذا وقفت حركة الازارقة حائلا دون احكام مصعب ابن الزبير سيطرته على العراق،لانها ابعدت عنه خيرة جنده الذين كانوا مع المهلب ، مما سهل على عبدالملك بن مروان الانتصار على قوات الزبيريين في العراق وقتل مصعب بن الزبير ٠

ثانيا : في عهد عبدالملك بن مروان :

لما دان العراق لعبدالملك بن مروان بعد مقتل مصعب ابن الزبير ، تردد المهلب في بيعته ـ وكان على قتال الازارقة ـ فكتب اليه عبدالملك قائلاً :

« ان الناس مجتمعون على بيعتي ، فان دخلت فيما

دخل الناس فيه ، عرفنا لك منزلك وشرفك ، وان لم تفعل استعنا بالله عليك» (١٠) . وحينئذ أدرك المهلب ان لا حيلة له بانهيار الزبيريين ، الا ان يضع نفسه في خدمة الامويين ، وبعكس ذلك سيكون بين عدوين هما الازارقة من جهـــة وعبدالملك بن مروان من جهة اخرى ، وهذا ما دفعـــه الى عرض طاعته في الحال .

ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى ان المهلب بمبايعته لعبدالملك ، انـّما باع سيفه للامويين .(١١)

ولكنه لم يغيـّر موقفه من الازارقة بعـد مبايعتـــه لعبدالملك ، وكأنما الأمر بالنسبة له قد تحول من الزبيريين الى خليفة اموي جديد لم يتعرض لأخذ خراج المناطق التي كانت بيده .

لقد رأى الازارقة مثلا حياً في تقلب عدوهم المهلب مع الحكم ، فأندفعوا في الحرب بأعنف ما يكون الاندفاع ، وظل المهلب يتولى قتالهم الى ان عزله عامل البصرة خالـد بـن عبدالله بن أسيد في سنة ٧٢هـ ، وجعله على خراج الاحواز وولى مكانه اخاه عبدالعزيز بن عبدالله بن أسيد . ولكن عبدالعزيز هذا لم يثبت كفاءة في قتال الخوارج الازارقـة الذين انزلوا بقواته هزيمة منكرة في درايجرد ، فلما بلغ خبر هزيمته عبدالملك بن مروان ، كتـــب الى خالد بن

عبدالله بن أسيد مؤنباً اياه على ما فرّط فيه بعزله المهلب عن القتال وتوليته الخراج . ولكي يهون خالد من غضب الخليفة عليه ، خرج بنفسه على رأس جيش الى الاحواز وجعل المهلب على ميمنته ، فحارب الازارقة واجلاهم الى فارس . (١٢)

وفي سنة ٧٤هـ ، عزم عبدالملك بن مروان على استئصال شأفة الازارقة ، فعزل خالد بن عبدالله بن أسيد عن البصرة وضمها الى اخيه بشر بن مروان عامل الكوفة . ثم اعاد المهلب الى حربهم ، لما عرفه فيه من مزايا عسكرية . وخوله ان ينتخب من أهل البصرة من يشاء من العرسان واولي الفضل والتجربة في الحرب ، وامر اخاه بشراً ان يضم اليه جيشاً كوفياً يجعل عليه رجلا مجربا في الحرب . (١٣)

غير ان بشراً لم ترق له اعادة المهلب الى حرب الازارقة من جديد ، اذ كان يكرهه لميوله الزبيرية فيما سبق . وذكر (المبرد) (١٤) انه هم مرة بقتله ولكنه اخفق ، ومما زاد في حنقه عليه ان توليته لقتال الازارقة ، جاءت من قبل الخليفة عبدالملك مباشرة ، الامر الذي يجعله مستقلا عنه ، فلم يعد بميسوره عزله واستبداله بآخر ، بل اذعن لأمر الخليفة ، فعقد لعبدالرحمن بن مخنف الازدي ، واوصاه ان لايقبل للمهلب مشورة ، ولكن ابن مخنف ـ

لكونه ازدياً كالمهلب ، واكثر تجربة وحنكة ـ لم يأبه بما طلب اليه بشر رغم تظاهره بطاعته .(١٥)

ومما يستثير الانتباه هنا ، هو هذا الاختلاف الذي ظهرت بوادره بين المهلب وولاة الامور في العراق ، ورغبتهم في تحويل حرب الازارقة عنه الى غيره ، ولابد ان يكون لهذا الاختلاف اسباب منها : ان المهلب كان يمانياً ، واكثر ولاة الأمور من المضرية ، وهؤلاء كان يهمهم تقديم أحد من بني عصبيتهم عليه . ومنها ان الازارقة كانوا يعدون اشد اعداء الدولة الاموية ، فمن يستطيع استئصال شأفتهم ، كان يستطيع ان ينال حظوة لدى الخليفة الأموي ، وان يسمي نفسه بحق منقذ الدولة (١٦) . لهذا كله لم يكن من مصلحة المضريين ان يذهب بفخر هذه الانتصارات قائد يماني ليس من بني عصبتهم .

وعلى اية حال ، فقد استأنف المهلب قتال الازارقة من جديد ، فلقيهم في رامهرمز ، ثم التحق به عبدالرحمن بن مخنف بمن معه من اهل الكوفة ، وبعد عشرة ايام من القتال ، شاءت الظروف ان يتوفى بشر بن مروان ، فلما بلغ الجند هذا الخبر انتهزوا الفرصة ، فعاد كثير منهم الى البصرة والكوفة ، اذ لم يوافقهم ان يبقوا طويلاً في

الميدان بعيدين عن زوجاتهم واولادهم وبيوتهم ، فتحرج موقف المهلب واضطر الى اتخاذ موقف دفاعي ، وكان من حسن حظه ان دب الخلاف بين صفوف الازارقة آنذاك . فلولا ذلك لشنوا عليه هجوماً قوياً .

لقد تطلب هذا الوضع الخطير رجلا حازما قويا ، يعيد الأمن والنظام في صفوف جيش العراق ، ويسند المهلب في الميدان ، فكان هذا الرجل هو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي عينه عبدالملك بن مروان في سنة ٧٥هـ والياً جديداً على العراق خلفاً لاخيه المتوفى بشر بن مروان . (١٧)

وقد وجد الحجاج ان اولى مهماته الآنيّة ، هي اعادة الجند الفارين من جيش الكوفة ، فبدأ بالكوفة وخطب في اهلها خطبته المشهورة التي وردت في مصادر عديدة ، مع بعض الاختلافات(١٨) ، والتي تلقي ضوءاً على السياسة التي نفذها في العراق ، فقد هدد بقتل كل من وجد متخلفاً عن بعث المهلب بعد ثلاثة ايام ، واقدم فعلا على قتل عمير ابن ضابىء البرجمي الذي طلب اليه ان يعفيه من مهمة البعث ، لكبر سنه ، وانه يقدم ابنه مكانه ، وكان من نتيجة

هذه السياسة الشديدة ان ازدحم الناس على جسر الكوفة ، ملتحقين بجيش المهلب .

ولما سمع جند البصرة الفارّون ، بخبر ما فعله الحجاج في الكوفة ، اسرعوا للالتحاق بجند الكوفة ، واكثر من ذلك كله ، كتب الحجاج الى المهلب يحثه على الجد في قتال الازارقة ، ويخوله قتل كل من تحدثه نفسه بالعصيان ، كما اخبره انه سوف لا يألو جهداً في مساندته . (١٩)

وتفسر قسوة الحجاج تجاه الجند الفارين ، بأن الدولة حين تمنحهم العطاء ، فانها تكون مخولة قانونا بضرب البعث عليهم ، والزامهم بالاشتراك في القتال . (٢٠)

ونتيجة لهذا الدعم الفعال من الحجاج ، انقلب الامر في حرب الخوارج من حال الى حال ، فبعد أن كان القواد لا يعبئون الجند الا بصعوبة ، اخذ الحجاج الناس بالشدة وسيرهم لمحاربة الازارقة ، فاصبح المهلب قادراً بعد ان نفرت الناس اليه ، على اخذ المبادرة في الهجوم ، فنشط لحرب الازارقة واجلاهم عن رامهرمز ثم تبعهم الى كازرون (وهي مدينة بين البحر وشيراز) . وفي هذه المنطقة شن الازارقة هجوما ليليا على جيش اهل الكوفة ، وقتلوا قائده عبدالرحمن بن مخنف ، فوجه الحجاج والي اصبهان عتاب

ابن ورقاء الرياحي ، قائداً لجيش اهل الكوفة ، وذلك في سنة ٧٦هـ ٠ ولكن هذا القائد الجديد ، لم يبد رغبة بالقتال تحت امرة المهلب ، فتوترت العلاقة بينهما ، وكادت تؤدي الى فتنة قبلية بين تميم من جهة والازد وبكر بن وائل من جهة اخرى ، ولعل هذا يفسر لنا حماس المهلب لتقوية الحلف بين الازد وبكر في هذه المرحلة والذي لم يكن يؤيده في البداية ٠ (٢١)

ويبدو ان الحجاج احسّ بان وجود عتاب بن ورقاء ، يعرقل مهمة المهلب في مناجزة الازارقة ، فاستدعاه لمحاربة فرقة خارجية اخرى ، هي فرقة شبيب بن يزيد الشيباني . وبعد انسحاب عتاب ، عين المهلب ابنه حبيباً على جيش الكوفة ، وواصل محاربة الازارقة حتى اتمكن من اجلائهم من فارس الى كرمان ٠

ومما يلاحظ ان الحجاج لم يبق فارس بيد المهلب ، يجبي خراجها للانفاق على جيشه ، بل اخذها منه وعين عليها عمالاً من قبله ، ولما علم الخليفة عبدالملك بن مروان بذلك ، أمر الحجاج باعادتها الى المهلب لينفق خراجها في متطلبات الحرب ٠ والراجح ان هذا الاجراء هو الذي دفع الحجاج الى اتهام المهلب باطالته الحرب متعمداً ٠ ويمكن

القول ايضاً ان سبب الحاح الحجاج على المهلب واستعجاله أياه في حسم الحرب لصالح الدولة ، يعود الى رغبته في اظهار مقدرته وكفاءته امام الخليفة عبدالملك بن مروان ، وليثبت انه انجح ممن سبقه من الولاة في العراق ، وهذا كله دفعه الى الاكثار من رسله وكتبه الى المهلب بانهاء تلك الحرب باسرع ما يكون . (٢٢)

ونعتقد ان الحجاج كان على خطأ في اقحام نفسه بأمور عسكرية ليس من شأنه ان يبت فيها ، فان دعوته قائده لمهاجمة العدو الخارجي ، وهو بعيد عن ميدان المعركة غريبة عن الموقف العسكري . ومع هذا فقد اظهر المهلب تسامحاً وسعة بال امام تدخل الحجاج ، وحاول ان يوضح له ان خطته تقوم على ان لايخوض معركة يعرض فيها جيشه للخطر ، وكان يبرهن لرسل الحجاج على جديته المتناهية في قتال الازارقة ، باطلاعهم على بعض جوانب معاركه ، ثم يطلب اليهم نقل وصفها امام مرسلهم .

كان المهلب يقدر الموقف جيداً ويأمل بالازارقة أحد ثلاثة أمور اما « موت ذريع ، او موت مضر ، او اختلاف من اهوائهم » (٢٣) وقد حدث ما كان يأمله سنة ٧٧هـ ، حيث دب الخلاف بين الازارقة ، وقيل في سبب ذلك ،

انهم خلعوا رئيسهم قطري بن الفجاءة عن الحرب بسبب الهزائم التي منوا بها ، فولوا عليهم عبد ربه الكبير ، واقام بعضهم على بيعة قطري(٢٤) • وجاء في رواية اخرى عن سبب اختلافهم ، ان رجلا منهم يدعى المُقَعْطَر العنبَي قتل رجلا من فرسانهم ، فطلبوا الى قطري ان يقتل العنبي بصاحبهم ، الا انه امتنع عن اجابتهم ، وحينذاك بايعوا عبد ربه • (٢٥)

ومهما يكن ، فان المهلب استغل اختلاف الازارقة ، فسعى الى تعميق هوته ليوهن امرهم ، فلم يهاجمهم ، بل تركهم يتقاتلون فيما بينهم ، لانه ادرك ان مهاجمتهم اول الأمر ستؤدي الى توحيدهم من جديد •

وهكذا تفرقت كلمة الازارقة ، فلحق قطري بن الفجاءة وجماعته بطبرستان تاركاً عبد ربه الكبير وجماعته في « جيرفت » احدى مدن كرمان ، امام المهلب ، وبقي مقيما في طبرستان بعيداً عن ميدان المعركة ، حتى وجه الحجاج اليه بطلب من المهلب ، سفيان بن الأبرد الكلبي واسحاق بن محمد بن الاشعث والي الري ، فحارباه وقتلاه، واحتز سفيان راسه وحمله الى الحجاج الذي سيره بدوره الى عبدالملك بن مروان • (٢٦)

اما الازارقة اتباع عبد ربه ، فقد حاصرهم المهلب في جيرفت حتى أعياهم الجوع ، ثم امر ابنه يزيد ان يفتح لهم باب المدينة ، فخرجوا وسار للقائهم ، فقتل عبد ربه الكبير وجميع أبطاله . وعندما رأى البقية الباقية منهم عدم جدوى المقاومة ، سارعوا الى الدخول في جيش المهلب . وانضم كل رجل منهم الى قبيلته فيه .

وهكذا لبث المهلب على حرب الازارقة الخوارج زهاء اثني عشر عاماً ، حتى شتت شملهم وافنى جموعهم وقضى على اكثرهم .

وبعد انتصار المهلب على الازارقة ، استدعاه الحجاج اليه ، واظهر له البر والاكرام، ووصله هو واصحابه بالجوائز واثنى على الجميع ثناءً عاطراً ، وقال : « هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال ، هؤلاء حماة الثغور وغيظ الاعداء » .(٢٧)

وقد أقام المهلب بعد منصرفه من عند الحجاج بالبصرة ، حتى وافاه عهده له على ولاية خراسان ، وذلك في سنة ٧٩هـ .

ومن كل ما تقدم نستنتج ان المهلب لم يكن في مجمل نشاطه الحربي مجرداً . من المصلحة الشخصية ، واذا شئنا ان نقيمه على وجه العموم ، فاننا نضعه في صف

القادة العسكريين العظام والموهوبين في الدرجة الاولى ٠
اما عن مواقفه السياسية ، فانه لم يعتنق عقيدة معينة يخلص لها ، وانما تحول من صف الى صف حيث تتوفر مكانات تحقيق طموحه ونجاحه ، كما تجلى لنا ذلك واضحاً في محاربته للخوارج على مدى طويل ٠

هوامش الفصل الثالث

(١) تاريخ الطبري : ٥/٥٦٤ ·

(٢) المبرد ، الكامل : ٣/٣١٢ · تاريخ الطبـــري : ٥/٦٢١ ·

(٣) المبرد ، الكامل : ٣/٣٢٣ .

(٤) م · ن : ٣/٣١٥ ·

(٥) المسعودي ، التنبيه والاشراف : ٣١٢ ، الحميري ، الحور العين : ١٨٢ ·

(٦) الخشبية : سموا بهذا الاسم لانهم كانوا يتسلحون بالعصي من الخشب · (الاصفهاني ، الاغـاني : ٦/١١٦) ·

(٧) الاصفهاني ، الاغاني : ٦/٥٠ ·

(٨) البلاذري ، انســـاب الاشراف : ٤/ق٢ : ١٥٥ ـ ١٥٧ ·

(٩) ابن الاثير ، الكامل : ٤/٣٢٤ ·

(١٠) البلاذري ، انساب الاشراف : ٤/ق٢ : ١٥٨ ·

(١١) الدكتور محمد حلمي احمد ، الخلافة والدولة فـي العصر الاموي : ٢٤٨ .

(١٢) تاريخ الطبري : ٦/١٧٢ ـ ١٧٣ ·

(١٣) م · ن : ٦/١٩٦ ·

(١٤) الكامل : ٣/٣٦٤ ٠

(١٥) ولهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها : ١٨٦ ٠

(١٦) عمر ابو النصر ، الخوارج في الاسلام : ١٠٤ ٠

(١٧) الدكتور نافع العبود ، آل المهلب : ٦٨ ٠

(١٨) انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين : ٢/٣٠٧ـ٣١٠ ٠
ابن بكار : الاخبار الموفقيات : ٩٤ـ٩٧ . المبرد ، الكامل / ٣٨٠ ـ ٣٨٢ ٠ تاريخ الطبـري : ٦٠ / ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ٠

(١٩) تاريخ الطبري : ٦/١٩٧ ٠

(٢٠) الدكتور صالح احمد العلي ، العطاء في الحجـــاز
(مجلة المجمع العلمي العراقي ـ المجلد العشرون ١٩٧٠) : ٧٦ ٠

(٢١) الدكتور عبدالامير دكسن ، الخلافة الاموية ، ٢٨٧٠

(٢٢) المبرد ، الكامل : ٣/٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ٠

(٢٣) م ٢ ن ٠ ٠ ٣/٣٧٤ ٠

(٢٤) تاريخ الطبري : ٦/٣٠١ ٠

(٢٥) م ٠ ن ٠ : ٦/٣٠١ .

(٢٦) الدينوري : الاخبار الطوال : ٢٨٨ ٠

(٢٧) تاريخ الطبري : ٦/٣١٩ ٠

الفصل الرابع

ولاية المهلب على خراسان

في سنة ٧٨هـ ، اقصى الخليفة عبدالملك بن مروان عن خراسان وسجستان ، الوالي أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وضمهما الى الحجاج بن يوسف عامله على العراق ، فاصبح هذا مسيطراً على النصف الشرقي من الدولة العربية الاسلامية تقريبا ، وخوله عبدالملك صلاحية كافية لحل مشاكل المشرق ٠

وقد وقع اختيار الحجاج على المهلب بعد فراغه من حرب الازارقة ، وعينه والياً على خراسان ، نظراً لما عرفه فيه من قابليات عسكرية وادارية تتناسب وحاجة ذلك الاقليم اليها في تلك الظروف ٠

ويبدو ان الحجاج كان يهدف من تعيين المهلب على خراسان ، الى موازنة قوة تميم بقوة قبيلة اخرى هي قبيلة الازد ، كما كان يأمل من المهلب ان يشغل القبائل العربية هناك ، بالفتح في ما وراء النهر [١] ، وبذلك يقضي على الخصومات القبلية فيما بينها ، وربما يكون الحجاج ايضا

قد شعر بأن قوة العرب التي اظهروها في العراق كانت اكثر مما يرغب فيه ، ومن ثم قرر ان يوجه من كان منهم في جيش المهلب الى الخارج ، وذلك بتعيين المهلب نائباً عنه في خراسان .

وقد نجح المهلب الى حد ما ، في تنفيذ ما كان يأمله الحجاج فيه ، فاهتم بتشجيع استقرار الازد في خراسان ، لكي يوجد نوعا من التوازن القبلي ، اذ لم يسمح للعصبية القبلية ان تفصح عن نفسها في خراسان ، طيلة مدة ولايته خاصة وانه شغلها بالفتوح .

وفي أثناء ولاية المهلب لخراسان ، علت كلمة الأزد علواً بعيداً ، على عكس ما كان يتوقعه الحجاج الذي ظل عاجزاً عن صرف المهلب عن خراسان ، لأنه كان يعلم مدى تقدير الخليفة عبدالملك له ، لما أسدى له من خدمة كبيرة ، بصده الازارقة الخوارج عن العراق وتحطيمه لهم بفارس. ومع ذلك فان الحجاج جاهر بعدائه للمهلب وآخذه بالف الف درهم ، من خراج الاحواز ، عندما كان والياً عليها من قبل خالد بن عبدالله بن اسيد ، فتحملها المهلب وابنه المغيرة مناصفة (٢) .

ولما كان المهلب لا يعتمد على تميم وقيس المضريتين ، واللتين كونتا حلفاً فيما بينهما ، فانه مال الى محالفة ربيعة اليمانية ، لما كان يجمع بينها وبين قومه الازد من

التحالف في البصرة ، ونجد في ابيات نهار بن توسعة التميمي ، التي رثى بها المهلب اشارة الى هذا الحلف :

تطيف به قحطان قد عصّبت به
وأحلافها من حي بكر وتغلبِ
وحيّاً معدٌ عوّذٌ بلوائه
يفدّونه بالنفس والأم والابِ (٣)

وعلى الرغم من هذا التحالف بين الازد وربيعة ، فقد انحصرت معظم الوظائف والمنافع في الأزد ، كما يدل على ذلك قول يزيد بن المهلب لهم ، عند ولايته الثانية لخراسان بعد مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي ، وانتخاب الازد وغيرهم وكيع بن سود التميمي اميراً لهم :

« يا معشر الأزد : كنتم اذل خمس بخراسان ، حتى كان الرجل من الحي الآخر يشتري فيتسخركم فتحملونه له ، حتى قدم المهلب وقدمت ، فلم ندع موضعاً يستخرج منه درهم الا أستعملناكم عليه ، وحملناكم على رقاب الناس حتى صرتم وجوحاً » . (٤)

على ان صفاء التحالف بين قبيلتي الازد وربيعة ، لم يكن يخلو من كدر يظهر بين حين وآخر ، فقد وقع اختلاف شديد بين بعض ابناء القبيلتين بخراسان ايام المهلب ، وتهاجى شعراؤهم هجاءً فاحشاً ، فاضطر المهلب الى التوسط بينهما ، ليحول دون تطور ذلك الخلاف ، فتوقف

فرسانهم عن الحرب ، وكف شعراؤهم عن التهاجي ، فتحمل المهلب ديات القتلى واطفأ بذلك نار الفتنة بين القبيلتين (٥) .

اما القبائل المضرية ، فعلى الرغم من انها كانت مجتمعة في حلف واحد ، فان كلمتها كانت تتفرق وصفوفها تتمزق ، كما كانت تلتحم بين آونة وأخرى ، بمعارك طاحنة ، فتزعزع وحدتها وتتوزع شيعاً يعادي بعضها بعضاً ، اما معارضتهم السياسية فكانت قد اقتصرت على هجاء بعض شعرائهم للمهلب (٦) .

هذا ما يتعلق بحال القبائل العربية في خراسان اثناء ولاية المهلب . اما فيما يتعلق بفتوحات المهلب في تلك الجبهة الشرقية ، فانه انصرف الى الفتح والجهاد ، فشن غاراته المتواصلة على الكفار فخيله « بسمرقند واخرى ببخارى واخرى ببلخ واخرى ببست »(٧) .

ففي سنة ٨٠هـ ، استخلف ابنه المغيرة على عمله بخراسان ، وتوجه الى بلاد ما وراء النهر ، وعند وصوله الى مدينة كش ، أتاه ابن عم ملك الخُتَّل ، ودعاه الى فتح بلاد ابن عمه ، وكانت تلك البلاد كثيرة المدن وهي متاخمة للسند (٨) ، فوجه المهلب معه ابنه يزيد الذي تمكن من محاصرة ملك الختل في قلعته واضطره الى مصالحته على فدية حملت اليه وعاد .

وفي السنة نفسها أيضا ، وجه ابنه حبيبا الى

بخارى ، فظفر هذا بجماعة من جيش العدو عند احــدى القرى ، واحرق القرية التي سميت ب (المحترقة) ثـم عاد الى والده المهلب [٩] .

وقد بقي المهلب مقيما بكش مدة سنتين ، واصــل خلالها شن غاراته على بلاد الصغد ، ولكنه لم يتمكن من التوغل فيها ، لخشيته على جيشه فضلا عن عدم اطمئنانه الى المضرية الذين كانوا معه ، والذين ، على ما يبدو ، قد تآمروا عليه ، وهمّوا بقتله ، فقبض على جماعة منهـــم وحبسهم تحفظاً من غير اتخاذه اجراءً حازما ضدهم وهو في بلاد العدو . ولعل هذه المؤامرة دفعت به الى مصالحة أهل كش على فدية يؤدونها له .[١٠]

وفي تلك الاثناء أتاه كتاب عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث ، يدعوه فيه الى خلع الحجاج ويطلب مساعدته في هذا الأمر ، ولكنه لم يجبه الى طلبه ، نظراً لما تؤدي اليه هذه الفتنة من تفرق الكلمة واراقة دماء المسلمين[١١] . فضلا عن انه لم يرغب ان يغدر بعد السبعين من عمره . وكان موقفه هذا ازاء ابن الاشعث ذا فائدة كبيرة بالنسبة للامويين ، اذ حال رفضه زج نفسه في الفتنة ، دون تقوية امر ابن الاشعث .

وبعد ان صالح المهلب أهل كش على الفدية ، آثر العودة الى مرو الروذ مجتنباً زج نفسه في مخاطر جديدة في بلاد ما وراء النهر النائية ، وبعد عودته بقليل توفـي

ابنه المغيرة نائبه في مرو الروذ[١٢] ، فحزن عليه حزنا شديداً ، ولازمه المرض ، فاخذ يتهاوى امام ضعفه الانساني ٠

ولما أحس المهلب بدنو أجله ، وهو بزاغول من مرو الروذ ، جمع من حضره من اولاده ، واستخلف عليهم ابنه يزيد وولاه بعده ، ثم اوصاهم بتقوى الله وصلة الرحم ونهاهم عن القطيعة ، واكد عليهم التمسك بقومهم وحب العرب واصطناعهم ، والتحلي بمكارم الاخلاق ، كالايثار والجود ، واحترام الكبير والعطف على الصغير ، ومساعدة الجار والفقراء ، وتعلم قراءة القرآن الكريم والسنن وآداب الصالحين ، كما اوصاهم باعتماد المكيدة والصبر في الحروب ٠ ونرى من المناسب هنا ان نورد نص وصيته لاولاده والتي قال فيها :

«فاوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فان صلة الرحم تنسىء في الأجل ، وتثري المال ، وتكثر العدد ، وانهاكم عن القطيعة ، فان القطيعة تعقب النار ، وتورث الذلة والقلة ، فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا امركم ولا تختلفوا ، وتباروا تجتمع اموركم ، ان بني الأم يختلفون ، فكيف ببني العلات ! وعليكم بالطاعة والجماعة ، وليكن فعالكم أفضل من قولكم ، فاني احب للرجل ان يكون لعمله فضل على لسانه ، واتقوا الجواب وزلة اللسان ، فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ، ويزل لسانه فيهلك ، اعرفوا

لمن يغشاكم حقه ، فكفى بغدوّ الرجل ورواحه اليكم تذكرة له ، وآثروا الجود على البخل ، واحبّوا العرب واصطنعوا العرف ، فان الرجل من العرب تعده العِدةَ فيموت دونك ، فكيف الصنيعة عنده ! عليكم في الحرب بالاناة والمكيدة ، فانها انفع في الحرب من الشجاعة واذا كان اللقاء نزل القضاء ، فان اخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل : أتى الأمر من وَجْهه ، ثم ظفر فحمدُ ، وان لم يظفر بعد الأناة قيل : ما فرّط ولا ضيّع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن ، وادب الصالحين ، واياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم » .(١٣)

وفي شهر ذي الحجة سنة ٨٢هـ ، مات المهلب ، وانتهت بموته حياته الحافلة بالحروب والفتوح ، ورثاه نهار بن توسعة مرثية قال فيها :

الا ذهب الغزو المقرّب للغنى
ومات الندى والجود بعد المهلّبِ

اقاما بمرو الروذ رهنَيْ ضريحه
وقد غيّبا عن كل شرق ومغربِ

اذا قيل أي الناس أولى بنعمة
على الناس ؟ قلناه ولم نتهيّبِ

اباح لنا سهْل البلاد وحزنَها
بخيلٍ كاسراب القطا المتسرّبِ

يعرّضها للطعـــن حتى كأنمـــا

يجلّلها بالأرجـــوان المخضـــبِ

تطيف به قحطانُ قد عَصّبت به

واحلافها من حي بكـر وتغـلـبِ

وحَيّـا معـــدّ عُوّذٌ بلوائـه

يفـــدّونـه بالنفس والأم والأبِ

هوامش الفصل الرابع

(١) الدكتور فاروق عمر فوزي ، العباسيون الاوائل : ١/٥٢ .

(٢) تاريخ الطبري : ٦/٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٣) م . ن . : ٦/٣٥٥ .

(٤) معمر بن المثنى نقائض جرير والفرزدق : ١/٢٦٧ .

(٥) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني : ١٤/٢٨٧ ، ٢٩٣ .

(٦) الآمدي ، المؤتلف والمختلف : ٧٣ .

(٧) ابن اعثم الكوفي ، الفتوح : ورقة ٩٠ . (نسخة الدكتور عبدالامير دكسن) .

(٨) ياقوت ، معجم البلدان : ٢/٤٠٢ .

(٩) تاريخ الطبري : ٦/٣٢٦ .

(١٠) م . ن . : ٦/٣٥٣ .

(١١) م . ن . : ٦/٣٣٨ .

(١٢) راجع قصيدة الشاعر زياد الاعجم في رثاء المغيرة وتصويره رزء المهلب بوفاته : القالي ، ذيل الآمالي والنوادر : ١/١١ .

(١٣) تاريخ الطبري : ٦/٣٥٤ .
وانظر أيضا : السجستاني ، المعمرون والوصايا :
١٤١ ـ ١٤٢ .
أسامة بن منقذ ، لباب الآداب : ٢٩ ـ ٣١ .

(١٤) تاريخ الطبري : ٦/٣٥٥ .

الخـــلاصة

من خلال هذه الدراسة ، تبين لنا ان المهلب بن ابي صفرة من قبيلة الازد اليمانية المعروفة بشجاعة رجالهـــا ورجاحة عقولهم ، وكان ابوه مــن ســادات الأزد عقـــلا واتزاناً وشجاعة وحلما • ولقد امتزج الطبع الموهوب في المهلب بالعلم المكتسب والشجاعة المتميزة النادرة ، فكوّن هذا المزيج شخصيته النادرة في مزاياها الانسانية والقيادية على حد سواء •

كان المهلب من اجواد العرب المشـــهورين بالكـــرم والشهامة ، وكان طرازاً نادراً من الرجال يندر ان يجود الدهر بمثله الا نادراً ، وكان قائداً بارعاً من الطراز الاول ، وان مزاياه القيادية تجلت في شجاعته اولا ، وتفكيره في ادارة الحرب بشكل رائع ثانياً •

ولهذه المزايا العسكرية والانسانية ، كان المهلـــب موضع ثقة الخلفاء والأمراء الذين عاصرهم ، على الرغم من اختلاف ميول واتجاهات هؤلاء فكان موضع ثقة علي بن ابي طالب (رض) ومعاوية بن ابي سفيان وعبدالله بن الزبير

واخيه مصعب ، وعبدالملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي ، فعقد له علي بن ابي طالب (رض) اول لواء حين انهزمت الازد يوم الجمل ، واسهم في فتوحات المشرق ، فاثبت كفاءة عسكرية جعلت الأنظار تتجه اليه ، بحيث اختاره أهل البصرة ايام الزبيريين للقضاء على أخطر فتنة داخلية ، كانت تهدد سلامة الدولة العربية الاسلامية ، وهي فتنة الخوارج الازارقة ، وذلك بعد ان هددوا البصرة مراراً ، فوفق الى اجلائهم عنها ، ثم تعقبهم الى الاحواز . وبذلك نجح المهلب في حماية البصرة من خطر الخوارج الداهم .

وبعد ان قضى عبدالملك بن مروان على الحركة الزبيرية ، حول المهلب ولاءه للامويين ، فواصل محاربة الازارقة ، الى ان ابعدهم عن البصرة والاحواز وفارس ومكران ، بعد معارك ضروس خاض غمارها على مدى طويل .

وبعد فراغ المهلب من حرب الازارقة واستئصاله شأفتهم ، تولى خراسان للامويين مدة ثلاث سنوات ، تمكن خلالها من توطيد الأمن والاستقرار في المشرق الاسلامي ، ثم انصرف الى الفتح والجهاد في بلاد ما وراء النهر الى ان توفي بمروالروذ سنة ٨٢هـ ، وانتهت بموته حياته الحافلة بالحروب والجهاد .

اهم المصادر والمراجع

— ابن الأثير ، علي بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً (بيروت ٦٥ ـ ١٩٦٦) .

— ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) : الاصابة في تمييز الصحابة ، ٨ اجزاء ، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة ١٩٧٢) .

— ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد بن علي (ت ٦٨١هـ) : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ٨ أجزاء تحقيق احسان عباس (بيروت ٦٨ ـ ١٩٧٢) .

— ابن خياط الليثي العصفري ، خليفة بن ابي هبيرة (ت ٢٤٠هـ) .

تاريخ خليفة بن خياط ، جزءان ، تحقيق أكرم العمري (النجف الاشرف ١٩٦٧) .

— ابن رسته ، احمد بن عمر (ت بين ٢٩٠ ـ ٣٠٠هـ) : الاعلاق النفيسة ، ج٧ (ليدن ١٨٩١) .

— ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ) : الطبقات الكبرى ، ٩ أجزاء ، طبعة ادوارد سخاو (اوفست عن طبعة ليدن ١٩٠٤ ـ ١٩٤٠) .

— ابن عبد ربه الاندلسي ، احمد بن محمد (ت ٣٢٨) :
العقد الفريد ، ٨ أجزاء ، تحقيق محمد سعيد العريان
ط٢ (القاهرة ١٩٥٣) .

— ابن قتيبة الدينوري ، عبدالله بن مسلم :
عيون الاخبار ، ٤ أجزاء (اوفست عن طبعة دار الكتب
المصرية ، ٩٢٤ – ١٩٣٠) .

— ابن منقذ ، أسامة (ت ٥٨٤هـ) : لباب الآداب ،
تحقيق أحمد محمد شاكر (مصر ١٩٣٥) .

— ابو حاتم السجستاني البصري ، سهل بن محمد بن
عثمان (ت ٢٥٠هـ) : المعمرون والوصايا ، تحقيق
عبدالمنعم عامر (القاهرة ١٩٦١) .

— ابو عبيدة ، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) : نقائض
جرير والفرزدق ، ٣ أجزاء ، تحقيق بيفان (ليدن
١٩٠٥ – ١٩٠٩) .

— ابو الفرج الاصفهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ):
الاغاني ٢٤ جزءاً (طبعة دار الكتب المصرية والهيئة
المصرية للتأليف والترجمة والنشر) .

— ابو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله بن سهل
(ت ٣٩٥) : الاوائل ، تحقيق محمد السيد الوكيل
(طنجة ، ١٩٦٦) .

— احمد ، الدكتور محمد حلمي :
الخلافة والدولة في العصر الأموي (القاهرة ١٩٦٦).

— الأوسي الانصاري ، عمر بن ابراهيم (ت ٨١٤هـ) :

تفريج الكروب في تدبير الحروب ، تحقيق جورج سكاتلون (القاهرة ١٩٦١) .

— البستي ، محمد بن حيان (ت ٣٥٤ هـ) :
كتاب الثقات في الصحابة والتابعين واتباع التابعين (حيدر آباد الدكن ١٩٦٨) .

— البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ):
انساب الاشراف ، ج٤ ، القسم الثاني ، والجزء الخامس (القدس ١٩٣٦ ، ١٩٣٨) ، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع (بيروت ١٩٧٥) .

— الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :
البيان والتبين ، ٤ أجزاء ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة ٤٨ ـ ١٩٥٠) .

— الحاجري ، الدكتور طه :
الجاحظ حياته وآثاره (مصر ١٩٦٢) .

— دكسن ، الدكتور عبدالامير :
الخلافة الاموية ٦٥ ـ ٨٦هـ (بيروت ١٩٧٣) .

— الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ) :
تاريخ الاسلام ، ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٥١ ـ ١٣٦٩هـ) .

— الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ):
تاريخ الرسل والملوك ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط٢ (القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩) .

— العبود ، الدكتور نافع توفيق :
آل المهلب بن ابي صفرة ودورهم في التاريخ حتى

منتصف القرن الرابع الهجري (بغداد ١٩٧٩) ٠
— الفرزدق ، همام بن غالب بن صعصعة (ت ١٢٢هـ) :
الديوان (بيروت ١٩٦٠) ٠
— فوزي ، الدكتور فاروق عمر :
العباسيون الاوائل ط١ (بيروت ١٩٧٠) ٠
— المبرد ، محمد بن يزيد بن عبدالاكبر (ت ٢٨٥هـ) :
الكامل في اللغة والأدب ٤ اجزاء (القاهرة ١٩٥٦) ٠
— المسعودي ، علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ) :
التنبيه والاشراف (ليدن ١٨٩٣) ٠
— النرشخي ، محمد بن جعفر (ت ٣٤٨هـ) :
تاريخ بخارى ، تعريب وتحقيق الدكتور امين عبدالمجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي ، (مصر ١٩٦٥) ٠
— ياقوت الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، ٦ أجزاء (لايبزك ١٨٦٦ – ١٨٧٠) ٠
— اليعقوبي ، احمد بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ) : تاريخ اليعقوبي ، جزءان (بيروت ١٩٦٠) ٠
مشاكلة الناس لزمانهم ، تحقيق وليم ملورد (بيروت ١٩٦٢) ٠

الفهرست

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٨

الغلاف : رياض عبد الكريم
السعر : سبعمائة وخمسون فلساً
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة